الحفر على الحجر والجص في العصر العباسي

استمرت الأساليب الأموية في النحت على الحجر والجص متبعة خلال العصر العباسي الأول الذي يمتد منذ نشوء الخلافة العباسية سنة (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) حتى نهاية حكم المأمون سنة (٢١٨) هـ / ٨٣٣ م . وتعد الآثار المحفورة على الحجر أو الجص أو الخشب المتبقية من هذا العصر من أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة للمعنيين بدراسة الزخارف الإسلامية لأنها توضح بوادر نشأة زخارف التوريق العربية (الأرابك) التي اكتمل تطورها في القرن (٥) هـ / ١١ م)

ومن أولى الآثار الرخامية التي تنسب إلى القرن (٢) هـ / ٨ م) وإلى حكم المنصور بالذات وهو محراب جامع الخاصكي ببغداد المحفوظ بالمتحف العراقي بغداد. وهو عبارة عن تجويف مقعر يتوسطه إفريز رأسي محفور فيه زخارف نباتية يخرج بعضها من أواني وزهريات وقرن الرخا كائنة في المحور ويغلب على عناصرها أوراق العنب الخماسية التي تذكرنا بزخارف العصر الأموي ولا سيما زخارف قصر المشتى وذلك لتميزها بقربها من الطبيعة ووجود حيات عنب ثلاثية لدى اتصالها بالأغصان .

وينتهي الأفريز من الأعلى بورقة نخيلية تتفرع منها أصلاع محارية تشغل عقد نصف كروي يرتكز على عمودين حلزونيين لكل منهما تاج من ورقة الأكانتاس (

وهناك مجموعة تيجان أعمدة عثر عليها في الرقة في المنطقة المحصورة بين الرصافة ودير الزور تحتفظ بها متاحف المتروبوليتان وبرلين واستانبول بأمثلة منها تنسب إلى عصر هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ (م) (١) ولهذه التيجان زخارف نباتية امتاز بالتحوير عن الطبيعة واقتضاب أرضياتها وتنفيذها بواسطة الحفر البسيط والمشطوف أحياناً وتغلب على عناصرها الأوراق النخيلية وأنصافها وأوراق الأكانتاس. كما تعلو التيجان أفاريز ضيقة ذات زخارف نباتية يعتمد موضوعها الزخرفي على حركة الغصن الالتوالية تخرج من النالة مراوح تخيلية وأحياناً يتكون الموضوع من تتابع العناصر الزخرفية وتناوبها، كما يفصل بعض التيجان عن الأفاريز التي تعلوها سلاسل من حبيبات المسبحة أو اللؤلؤ وقد تمثل الأسلوب العباسي بأجل مظاهره وأفصح عن مميزاته الصريحة التي كانت أساساً للزخارف العربية الإسلامية بالنماذج الجصية المكتشفة في عمائر مدينة سامراء التي كانت على هيئة وزرات تغطي الجدران من الداخل إلى ارتفاع المتر تقريباً كما هو الحال في قصر الجوسق الخاقاني) و(بلكوارا) و(باب بالامة) وتدرجت تلك الأساليب في عدة مراحل متتالية من التطور أطلق عليها اصطلاح الطراز الأول والطراز الثاني والطراز الثالث وحصل التطور المذكور في فترة لا تزيد على ربع قرن نظراً للحاجة الشديدة إلى الاقتصاد في الوقت الذي تطلبته عملية تغطية الجدران بالزخارف يفعل حركة العمران السريعة في المدينة التي أملت على الصناع تلبية المطالب الملحة بالنسبة للبناء والزخرفة في وقت قصير فلجأوا إلى محلولة التبسيط التي أدت إلى ظهور الطرز

المذكورة التي تختلف عن بعضها من حيث طبيعة العناصر والمميزات الفنية وأسلوب النفيذ فالطراز الأول تغلب على عناصره أوراق العنب الخماسية والثلاثية الخصوص ذات العيون التي يفصلها عن بعضها أحياناً فضلاً عن التعرق النخيلي، وعناقيد العنب الثلاثية الفصوص، والعناصر الكاسية ذات الثقوب المعينية، وكيزان الصنوبر والمراوح التخيلية، والزهريات المختلفة داخل تقسيمات هندسية تغلب عليها المناطق السداسية تؤطرها أحياناً سلاسل من عناصر حبيبات المسبحة كما اقتصرت الأرضيات التي تتخلل تلك العناصر

وتعد هذه العناصر امتداداً للطراز الأموي وذلك لخروجها من عروق وأغصان طويلة حلزونية والتجسيم الناتج عن الظلال المتكونة بفعل قطاعات العناصر المقعرة والمحدبة والمسطحة أحياناً وقرب العناصر من الطبيعة على الرغم من اقتصاد الأرضيات وظهور التحوير فيها فظاهرة العيون غير الكاملة التي تمثلت بين فصوص ورقة العنب في العصر الأموي (٢) نضجت في هذا الطراز وتحولت إلى عيون صريحة وزال التسنن من محيطات الفصوص أحياناً (٣) واختفت حبات العنب الثلاث التي كانت تلاحظ لدى النقاء الورقة بالساق في ذلك العصر (١).

ونفذت العناصر الزخرفية بهذا الطراز بواسطة الحفر الرأسي ومن المرجح أنها كانت ترسم باليد بواسطة أقلام مدينة ثم تحفر الأرضيات بواسطة أزاميل خاصة مما يؤدي إلى بروز العناصر عن الأرضية.

أما الطراز الثاني فقد سادته بعض عناصر الطراز الأول إضافة إلى التفريعات الهندسية والأوراق المستديرة اللوزية والمراوح النخيلية التي غلبت على بقية العناصر. وقد دفعت الحاجة إلى الاقتصاد بالوقت والتكاليف نتيجة كثرة العمائر إلى زيادة تحوير

العناصر وبساطتها وقلة التأنق بتفاصيلها وكبر حجمها وانتخاب الأرضيات فيما بينها وتحولها إلى أخاديد ضيقة حلزونية الشكل قليلة العمق أدت إلى قلة النجسم وتحولت العناصر إلى وحدات مستقلة بنفسها بعد العدام الأخصان والفروع الحلزونية ومن المرجح أن أسلوب وطريقة تنفيذها تم وفق طريقة الحفر المباشر الذي تمثل في الطراز الأول..

والطراز الثالث امتاز بالشكل التجريدي نتيجة التحوير الشديد الذي أصليها وأبعدها بصورة عامة عن الطبيعة وتلاصقت العناصر بعد انعدام الأرضيات تماماً وأصبحت ذات قطاعات محدبة وجوانب مشطوفة أضفت عليها شيئاً من الظلال والتجسيم

وقد استجدت في هذا الطراز عناصر جديدة من الأشكال اللوزية والكاسية بفعل تقابل وتدابر العناصر الأصلية للموضوع الزخر في تخللتها ثقوب كونت بدورها أشكالاً إضافية من الأوراق المفصصة والتخيلية، كما تميزت العناصر الكلسية والجناحية بوجود قيمان مجوفة في أسملها وإذا استثنينا بعض الجوانب البسيطة للعناصر فإن تنفيذ الزخرفة تم بواسطة الحفر المشطوف الذي تكون بفعل حب الحص بالقوالب ووضعها على المسافات المخصصة لها وهي طريقة شبه صناعية أدت إلى الاقتصاد في الجهد والوقت والتكاليف وذلك لسهولة تكرار الوحدات الزخرفية على السطح وسرعة تنفيذها الذي التفت ظاهرة التوسع العمراني